خوليو كرطاثار (الأرجنتين)

زهـــرة صـفـــراء

اذا قلت اننا نحن الآدميين خالدون فقد تبدو المسألة مزاحا. ولكن الحقيقة هي اننا خالدون. أعرف ذلك عن طريق النفي، اعرف ذلك لأني عرفت الانسان الفاني الوحيد. حكى لي قصته في خمارة بـ rue Cambronne. كان سكران تماما، الى درجة ان قول الحقيقة لم يكن يكلفه اي شيء، دون ان يهمه ان يضحك صاحب الخمارة والزبناء القدامى حتى كانت الخمر تخرج من عيونهم. لاشك انه رأى بعض الاهتمام مرسوما في وجهي، فقد التصق بي بثبات وانتهينا بالسماح لأنفسنا بترف الجلوس الى طاولة في ركن حيث يمكن ان نشرب ونتكلم في سلام. قال لي انه من متقاعدي البلدية وان امرأته رجعت الى دار والديها لتقضي هناك مدة، وهذا مجرد طريقة مثل اية طريقة اخرى لقبول واقع انها هجرته. لم يكن عجوزا ولا جاهلا، كان وجهه هزيلا وعيناه عيني مسلول. كان في الواقع يشرب لينسى، وقد اخذ يصرح بذلك بعد كأس النبيذ الخامسة. ما شممت عليه تلك الرائحة التي هي إمضاء باريس والتي يظهر انها لا تشم الا علينا نحن الأجانب. وكان يعتني بأظفاره وفي رأسه لم تكن توجد قشرة.

حكى أنه في احدى حافلات الخط 95 رأى فتى في حوالي الثالثة عشرة، وأنه بعد لحظة من النظر اليه اكتشف ان الفتى يشبهه كثيرا، أو على الأقل يشبه الذكرى التي كان يحتفظ بها عن نفسه في تلك السن. أخذ شيئا فشيئا يسلم بأنه يشبهه في كل شيء : الوجه واليدين، الخصلة التي تنسدل على جبينه، العينين البعيدين عن بعضهما، وكان يشبهه اكثر في خجله، في كيفية لوذه بمجلة حكايات مصورة، في حركة رد الشعر الى الوراء وفي الرعونة الحتمية للحركات. كان يشبهه الى درجة انه كاد ان يضحك لذلك، ولكن لما نزل الفتى في rue de Rennes نزل هو كذلك تاركا صديقا ينتظره خائبا في مونبارناس. فتش عن ذريعة ليتكلم مع الفتى، سأله عن شارع وسمع دون ان يفاجأ الآن صوتا كان صوت طفولته هو. كان الفتى متوجها الى ذاك الشارع نفسه، مشيا قليلا في خفر. حينئذ نزل عليه نوع من الوحي. لم يكن اي شيء مفهوما، غير انه كان شيئا يمكن ان يستغني عن الفهم، شيئا يغدو منطمسا أو سخيفا لما يحاول — كما يفعل الآن — شرحه.

باختصار، وجد سبيلا الى معرفة دار الفتى، وبالاعتبار الذي كان يسبغه عليه ماض عمل فيه مدرب كشافة، فتح طريقه حتى ذلك الذي يعد حصن الحصون : البيت الفرنسي. وجد بؤسا بكرامة وأما عجوزا وخالا متقاعدا وقطين. بعد ذلك لم يكلفه كثيرا ان يكل اليه اخ له ابنه الذي كان في حوالي الرابعة عشرة، وصار الغلامان صديقين. وأخذ يذهب كل اسبوع الى دار لوك. كانت الأم تستقبله بقهوة أعيد طبخها، كانا يتكلمان عن الحرب، عن الاحتلال، عن لوك أيضا. ما كان قد بدأ كوحي، اخذ ينتظم الآن بطريقة هندسية، شرع

يتخذ ذلك الشكل الذي يحلو للناس ان يسموه قدرا. كان يمكن التعبير عن ذلك حتى بكلمات كل يوم : لوك كان هو مرة اخرى، لم يكن هناك فناء، كلنا خالدون.

ـــ كلنا خالدون يا أخ. تصور، ما كان احد استطاع ان يثبت ذلك ويجيء دوري أنا. في حافلة 95. خطأ صغير في جهاز الآلة، طية في الزمان، تناسخ متزامن عوض ان يكون متعاقبا. لوك كان يجب ان يولد بعد موتي، وعوض ذلك... دون ان نعد المصادفة العجيبة : عثوري عليه في حافلة. اظن اني قلت لك ذلك، كان عبارة عن نوع من اليقين التام، بلا كلمات. كان ذلك والسلام. ولكن بعد ذلك بدأت الشكوك، لأن الانسان في تلك الأمور يعتبر نفسه غبيا او يشرب مسكنات. والى جانب الشكوك البراهين التي تقضي عليها الواحد بعد الآخر، البراهين على أني لم اكن مخطئا، على انه لم يكن هناك مجال للشك. ما سأقوله لك الآن هو ما يضحك هؤلاء السخيفين أكثر، لما يخطر لي احيانا ان احكي لهم. لوك لم يكن أنا مرة اخرى فقط، بل كان سيصير مثلي انا، مثل هذا المسكين التعيس الذي يتكلم معك. كانت تكفي رؤيته وهو يلعب، رؤيته وهو يسقط بكيفية سيئة دائما، متسببا في وثوء رجل أو اخراج ترقوة، وتلك العواطف بارزة على الوجه، وذلك التورد الذي كان يصعد الى الوجه بمجرد ان تطرح عليه اي سؤال. أما الأم فبالعكس، كيف يعجبهن الكلام، كيف يحكين للانسان اي شيء ولو كان الفتى هناك يموت حياء، اغرب الأشياء الحميمة، طرائف السن الأول، رسوم الثماني سنين، الأمراض... السيدة الطيبة ما كانت تشك في اي شيء، طبعا، وكان الخال يلعب معي الشطرنج، كنت كأني واحد من العائلة، حتى اني سلفتهم مالا كي يصلوا الى آخر احد الشهور. ما كلفتني معرفة ماضي لوك أي جهد، كان يكفي ادخال اسئلة بين المواضيع التي يهتم بها المسنون : روماتيزم الخال، البوابة الشريرة، السياسة. هكذا اخذت اعرف طفولة لوك بين بيادق الشطرنج وتأملات حول ثمن اللحم، وهكذا اخذ الاثبات يتحقق بلا اي خطإ. ولكن افهمني، بينما نطلب كأسا اخرى : لوك كان هو انا، ما كنت انا في طفولتي، ولكن لا تتصور ذلك كاستنساخ. الأحسن ان نقول إن ذلك كان صورة مشابهة، افهمت ؟، أقصد ان في السابعة من عمرينا وقع لي انفكاك في معصم ولوك وقع له في الترقوة، وفي التاسعة مرضنا بالحصبة والحمى القرمزية على التوالي، زيادة على ذلك : كان التاريخ يتدخل يا أخ، انا بقيت مريضا بالحصبة خمسة عشر يوما بينما لوك عالجوه في اربعة ايام، التقدم الطبي وأشياء من هذا القبيل. كل شيء كان متشابها، ولهذا، وعلى سبيل المثال، يمكن ان يحدث أن يكون خباز الناصية تجسدا جديدا لنابوليون، وهو لا يعرف ذلك لان النظام ما تغير، لانه لا يمكن ابدا ان يلتقي بالحقيقة في حافلة. ولكن اذا تمكن بطريقة ما ان يعرف تلك الحقيقة، يمكن ان يفهم انه كرر وأنه يكرر الآن نابوليون، أن الانتقال من غاسل أوان الى صاحب مخبزة كبيرة في مونبارناس هو نفس صورة القفزة من كورسيكا الى عرش فرنسا، وأنه اذا حفر شيئا فشيئا في تاريخ حياته سيجد اللحظات التي تقابل حملة مصر والزعامة وأوسترليتز، وربما ادرك كذلك ان شيئا ما سيحدث له مع مخبزته بعد سنين قليلة وأنه سينتهي

في سانتا هيلانة ربما تكون غرفة صغيرة في طابق سادس، ولكن مهزوما كذلك، محوطا كذلك بمياه الوحدة، فخورا كذلك بمخبزته التي كان امتلاكه اياها كطيران نسر سرعة. انت تدرك هذا، اليس كذلك ؟

أنا كنت أدرك ذلك، غير أني قلت مدليا برأيي اننا في الطفولة نصاب كلنا بأمراض تقليدية في اجل محدد، وإننا يكاد يتكسر لنا كلنا شيء ونحن نلعب الكرة.

ـــ عرفت، أنا ما تكلمت لك إلا عن المصادفات الظاهرة. مثالا، كون لوك يشبهني لم يكن ذا اهمية، ولكن الوحي في الحافلة كان مهما. الشيء المهم حقا هو التسلسل المنظم، وهذا يصعب شرحه لأنه يخص المزاج، ذكريات غامضة، حكايات الطفولة. في ذلك الوقت، اقصد لما كنت في سن لوك، مررت بفترة مريرة بدأت بمرض طويل جدا، بعد ذلك، اثناء النقاهة، ذهبت لألعب مع الأصحاب فتكسرت احدى ذراعي، وما كدت اخرج من ذلك تماما حتى وقعت في حب اخت زميل في المدرسة، فتعذبت كما نتعذب لما نكون عاجزين عن النظر في عيني فتاة تسخر منا. لوك مرض كذلك، ما كاد يتماثل للشفاء حتى استدعي للذهاب الى السرك، ولما كان ينزل من المدرج زلق فانفك رسغه. بعد ذلك بقليل فاجأته امه ذات مساء يبكي جنب النافذة، بمنديل صغير ازرق معصر في يده، منديل لم يكن من البيت.

بما ان لابد ان يقوم احد بدور المعارض في هذه الحياة قلت ان غراميات الطفولة هي التتمة المحتومة للحذر والجناب. ولكني قبلت ان مسألة الطائرة كانت شيئا آخر. طائرة بمروحة يحركها نابض اهداه اياها في عيد ميلاده.

ـــ لما اعطيته اياها تذكرت من جديد الميكانو التي اهدتني اياها امي لما كان عمري اربعة عشر عاما وتذكرت ما وقع لي. وقع اني كنت في الحديقة، رغم ان عاصفة صيفية كانت ستهب وكان الرعد يسمع في ذلك الوقت، وكنت بدأت أُركّب مرفاعا فوق طاولة الفسحة، قريبا من باب الشارع. سمعت احدا يناديني من البيت فاضطررت الى الدخول لحظة. لما رجعت لم اجد علبة الميكانو وكان الباب مفتوحا. جريت وأنا اصرخ يائسا الى الشارع حيث ما كان يرى احد، وفي تلك اللحظة بالذات سقطت صاعقة على الشاليه المقابل. جرى كل ذلك بسرعة هائلة، وكنت اتذكره وأنا اعطي لوك الطائرة وهو ينظر اليها بالسعادة نفسها التي نظرت انا بها الى الميكانو. جاءت لي الأم بفنجان قهوة، وكنا نتبادل كلام كل يوم حين سمعنا صرخة. كان لوك قد جرى نحو النافذة كأنما يريد ان يلقي بنفسه في الفراغ. كان وجهه ابيض وعيناه مليئتين بالدموع، تمكن من ان يتمتم ان الطائرة انحرفت في طيرانها وخرجت بالضبط من فتحة النافذة المواربة. وأخذ يردد باكيا : « لا أراها، لا أراها». سمعنا صراخا في الأسفل، دخل الخال يجري ليقول ان حريقا شب في الدار المقابلة. أفهمت الآن ؟ نعم، الأحسن ان نشرب كأسا أخرى.

بما أني ظللت صامتا، قال الرجل بعد ذلك انه كان قد بدأ يفكر في لوك فقط، في مصير لوك. كانت امه تريد ان ترسله الى مدرسة للفنون والخدمات الدينية ليفتح بتواضع ما كانت هي تسميه طريقه في الحياة، ولكن ذلك الطريق كان قد فتح وهو وحده ــ هو الذي لا يمكن ان يتكلم دون ان يعتبروه احمق ويبعدوه الى الأبد عن لوك ــ كان يستطيع ان يقول للأم وللخال ان لا شيء ينفع، انهما مهما فعلا فإن النتيجة ستكون هي نفسها، الاذلال، الورتين المثير للشفقة، السنين الرتيبة، الخيبات التي تأخذ في قضم الملابس والنفس، الملجأ في وحدة حاقدة، في خمارة حارة. ولكن اسوأ ما في كل ذلك لم يكن هو مصير لوك، الأسوأ هو أن لوك كان سيموت بدوره ورجل آخر سيكرر صورة لوك وصورته هو، حتى يموت ليدخل رجل آخر بدوره في العجلة. كان لوك حينذاك يكاد لا يهمه، في الليل كان ارقه يقذف الى ابعد من ذلك، الى لوك آخر، الى آخرين سيسمون روبير او كلود او ميشيل، نظرية حتى اللانهاية من ناس مساكين يكررون الصورة دون ان يعلموا، موقنين انهم احرار مخيرون. كان السكر يدفع الرجل الى الحزن، ولم يكن ممكنا ابعاده عن ذلك.

ــ الآن يضحكون علي لما اقول لهم لوك مات بعد ذلك بشهور قليلة، هم اغبياء جدا ولا يمكن ان يفهموا أن... نعم، لا تنظر الي هكذا انت كذلك. مات بعد ذلك بشهور قليلة، بدأ كل شيء بالتهاب شعبي، هكذا كما اصبت انا في تلك السن نفسها اصابة كبدية. أنا كانوا حملوني الى المستشفى ولكن ام لوك اصرت على ان يبقى في الدار ويعالج هناك، كنت أنا أكاد اذهب كل يوم، صاحبا معي احيانا ابن اخي ليلعب مع لوك. كان فقر ذاك البيت كبيرا جدا، الى درجة ان زياراتي كانت عزاء بكل ما في الكلمة من معنى : الصحبة للوك، علبة الزنكات او حلوى المشمش. تعودوا على ان اقوم أنا بشراء الأدوية، بعد ان تكلمت لهم عن صيدلية يخفضون لي فيها الأثمان تخفيضا خاصا. في النهاية قبلوني ممرضا للوك، ويمكن لك ان تتصور ان في بيت كذاك البيت، حيث يدخل الطبيب ويخرج دون اهتمام كبير، لا احد ينعم النظر كثيرا في هل الأعراض النهائية تتفق تماما مع التشخيص الأول للمرض... لماذا تنظر الي هكذا ؟ اقلت شيئا غير لائق ؟

لا لم يكن قد قال اي شيء غير لائق، خصوصا الى ذلك الحد من الخمر. بل العكس تماما، هذا اذا لم يكن تصور موت لوك المسكين كشيء شنيع يدل على ان اي انسان ميال الى الخيال يستطيع ان يبدأ توهما في حافلة 95 وينهيه جنب فراش يوجد فيه فتى يحتضر بصمت. لكي اطمئنه قلت له ذلك. ظل ينظر الى الفضاء برهة قبل أن يتكلم من جديد.

ــ طيب، كما تريد. الحقيقة هي اني في تلك الأسابيع (بعد الجنازة) احسست لأول مرة بشيء يمكن ان يشبه السعادة. كنت مازلت ازور من وقت لآخر ام لوك، احمل اليها علبة بسكويت، ولكنها في ذلك الوقت لم تكن تهمني كثيرا، لا هي ولا البيت، كنت كأني غارق في يقين عجيب، يقين بأني هو أول فان، باحساسي ان حياتي مازالت تستهلك يوما بعد يوم،

كأس خمر بعد كأس، وبأنها في الأخير ستنتهي في اي مكان وفي اية ساعة، مكررة حتى النهاية مصير انسان مجهول مات لا احد يعرف اين ومتى، ولكن انا سأكون مت حقا، بلا لوك آخر يدخل في العجلة ليكرر بسخافة حياة سخيفة. حاول أن تفهم ذلك الكمال يا أخي، اغبطني على تلك السعادة، على اللحظات التي دامتها.

لأنها على ما كان يظهر لم تدم. الخمارة والخمر الرخيصة كانتا تبرهنان على ذلك، والعينان اللتان تلمع فيهما حمى ليست للجسم. ومع ذلك عاش بضعة شهور يتلذذ كل لحظة من كفافه اليومي، من فشله في الحياة الزوجية، من إفلاسه في الخمسين، وهو متأكد من فنائه الذي لا احد يستطيع ان يغير فيه شيئا. ذات مساء، بينما هو يقطع اللوكسمبورج، رأى زهرة.

ـــ كانت في حافة مربع بستان، زهرة صفراء مثل كل الزهور. كنت توقفت لاشعل سيجارة وتشاغلت بالنظر اليها. كان الأمر كأن الزهرة تنظر الي هي كذلك، تلك الاتصالات، احيانا... أنت عارف، يحس بها اي انسان، ذاك الشيء الذي يسمونه الجمال. ذلك بالضبط، الزهرة كانت جميلة، كانت زهرة جميلة جدا. وأنا كان محكوما علي، كنت سأموت يوما بشكل نهائي. كانت الزهرة رائعة، دائما ستوجد زهور لناس المستقبل. فهمت العدم فجأة، ذاك الذي اعتقدت انه السلام، نهاية السلسلة. أنا كنت سأموت ولوك كان ميتا، لن تكون هناك أبدا زهرة لاحد مثلنا، لن يكون اي شيء، لن يكون اي شيء اطلاقا، والعدم هو ذلك، الا تكون هناك زهرة اخرى ابدا. احرقت الوقيدة المشتعلة اصابعي. وثبت في الساحة الى حافلة ما عرفت الى أين كانت متوجهة وأخذت انظر بكيفية لا معقولة، انظر الى كل شيء يرى في الشارع والى كل شيء موجود في الحافلة. لما وصلنا الى النهاية نزلت وركبت حافلة اخرى متوجهة الى الارباض. ركبت حافلات ونزلت منها المساء كله، حتى مضت فترة على هبوط الليل، وأنا افكر في الزهرة وفي لوك، وافتش بين الراكبين عن احد يشبه لوك، عن احد يشبهنا أنا ولوك، عن احد يمكن ان يكون انا مرة اخرى، عن احد انظر اليه وأناعارف انه أنا، ثم اتركه بعدئذ يذهب دون ان اقول له شيئا، وأنا اكاد احميه ليواصل حياته التعيسة السخيفة، حياته الغبية الفاشلة الى حياة اخرى غبية فاشلة الى حياة اخرى غبية فاشلة الى حياة أخرى...

سددت.

ترجمة : محمد العشيري

ـــ خوليو كرطاثار : كاتب ارجنتيني. ولد عام 1914. يعتبر احد روائيي أميركا اللاتينية الكبار.

عن كتاب :

- FINAL DEL JUEGO. JULIO CORTAZAR. EDITORIAL SUDAMERICANA. BUENOS AIRES. ARGENTINA. 1972